اللغة العربية وروابط الاجتماع

من خطبة فلسفية اجتماعية

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

من الخطل ان يتوهم المرء ان الصراع بين الاقوام يقتصر على النزال في ميادين الطعن والضرب بل ان هذا الطعان يتناول العادات والتقاليد والمعتقدات والاوضاع وسائر الميزات التي تميز الجماعة الواحدة عن الاخرى

ليست صدورنا وحدها عرضة لبنادق الفاتحين ولا رؤوسنا لقنابل الطيارين بل ان الاطعمة التي نأكلها في بيوتنا والطرابيش التي نضعها على رؤوسنا والحفلات التي نقيمها في اعراسنا والادعية التي نتلوها في صلواتنا والعلوم التي نتلقاها عن آبائنا والالفاظ التي نلفظها ابناءنا — كل ذلك عرضة لصراع اشد وطعان انفذ وربما كان الموت في الميادين الادبية اشدُّ فتكاً منهُ في الميادين النارية لان الامة مجموعة افراد خلقوا ليعملوا بالاشتراك على تحقيق غاية معنوية فكل خسارة تخسرها الامة في شؤونها المعنوية تفقدها شطراً من هذه الغاية الجوهرية

ان معظم المساعي العامة التي نصرفها في هذا الشرق العربي سواء في مصرام في الشام ام في العراق هي موجهة لتأييد كياننا السياسي والاحتفاظ بحريتنا الحكومية لاعتقادنا ان من كان سيداً في بلده هو حاكم على الميراث المادي والمعنوي الذي يرثهُ من الآباء والجدود واما من كان عبداً فهو غريب حتى عن الدار التي يسكنها والاهل الذين يعيش بينهم والاوضاع التي ينشأ عليها . ومع كل ما اشتملت عليه هذه العقيدة من الحقائق الناصعة التي اهتدى اليها الشرق بعد المحن والآلام فعلى من عاش مثلنا في بلاد كتب عليها موقتاً الاتمتع باستقلالها التام ان يتذكر ان الدفاع عن الكيان لا يقتصر دائماً على ميادين الطعن والضرب . بل هنالك ميادين معنوية لا تقلُّ في شرفها عن ميادين الحديد والنار

ان مدينة الناطقين بالضاد مهددة بالاكتساح كما اكتسحت اشرف بقاعهم وأثمن اراضيهم لان الاوضاع التي ليست لها مدرعات تحميها ودبابات تذود عنها وطيارات ترفرف عليها مهما كانت عزيزة على اصحابها مقدسة في اعينهم لا تستطيع اثبات كثيراً على المقاومة . والحرم الذي لا تحميه القوة بابهُ مفتوحٌ للاقوياء . والاله المسلح في الاعصر الخالية كان مسيطراً على الاله الاعزل

ان كل هجوم طارئ يتطلب جبهة مستحدثة للمقاومة . فهجوم البهرجة في النساء مثلاً الف وحدة جديدة في الرجال باسم جيش الحشمة للرجوع بالمرأة الى الالبسة المسدولة .

وكذلك فعل تيار الافكار الفلسفية الحرة المطلقة من القيود فأقام في الماضي كما اقام في الحاضر سدوداً من اهل الدين وحملة التقاليد تمنع فيضانه. وما المفسرون والمجتهدون ودعاة الاصلاح في الاسلام الا عمال في اقامة هذه السدود وكل تأويل جديد يهتدون اليه انما هو حجر في البناء

وقد رأينا في أيامنا الحاضرة ان تقدم المانيا الاقتصادي وتفوقها في وسائل الحرب ادى الى محالفات دولية باسم انقاذ المدنية وتأييد الديمقراطية او غير ذلك من الجمل الخلابة للوقوف في وجه التيار الجرماني الجارف مما انتج الحرب العالمية وويلاتها التي تئن منها الشعوب

وما عرضنا لمثل هذه الحوادث الا لنبين كيف تتألف الجبهات المتماسكة ترد الهجوم المستجد العنيف. ولا مراء في ان الناهضين في هذا الشرق المتوسط يعالجون طارئاً جديداً هو الخطر الذي يهدد الثقافة العربية. وعلى قدر عزائمهم ومضاء السلاح الذي يحملونه تكون صلابة الجبهة المنوية التي يقيمونها. ومن العبث ان يتقدموا بالسيف والرماح والابل والهوادج والنصيح والقيسون لمصارعة البادق والمدافع والسيارات والطيارات وما يدفعها من الزيوت. فاللغة التي لا تستوعب هذه المصطلحات الحديثة هي مثل الامة التي تحمل السلاح البالي محكوم عليها بالفشل. وليس مثل التجانس الادبي المنوي الراقي اساساً لمثل هذه الجبهة الصلبة ولا يمكن ان ينطق الناس لغة واحدة فيتجانسوا في آدابهم بل لا بدَّ من وضعهم في بوتقة التثقيف حتى يذوبوا في ادب واحد ولغة واحدة

ان بين الناطقين بالعربية من اهل الشرق من هم في ثقافتهم ابعد عنا من الناطقين بالعجمة من أهل الغرب. فعلينا اذا اردنا توحيد الصفوف حتى في القطر الواحد ان نعلي الثقافة حقها لان الاختلاط في اللغة مع التشابه في الثقافة اقرب الى التمازج من اتحاد اللغة مع التنافر في الثقافة. وهذا ما حمل العلماء على القول بأن التشابه المنوي في اعضاء المجتمع هو اساس جوهري للحضارة وقد كان الدين في القرون الوسطى مدار الثقافة وقطب الدائرة في الحركات الاجتماعية. كان جمع الاقوام (حتى المتنافرة في لغتها) حول العقائد المنزلة سهلاً فلا جرم ان الالمان والانكليز والفرنسويين اتحدوا يومئذ تحت راية الصليب لاخراج الكرد والترك والعرب من الاراضي المقدسة. واني وأنا اوجّهُ الانظار الى شأن التجانس الادبي في جمع الاقوام لا اريد ان ابخس اللغة حقها في المقام الرفيع الذي تبوأته في توحيد الناس بل انها هي رمز المجتمع والى نورها المتلألىء تشوق الاقوام المتخبطة في الديجور للتنوير

وما اصدق ما قاله عنها بلاكار وجيلين: —

« لقد ادت اللغة دائماً وظيفة مهمة في التنظيم الاجتماعي. فقد تولدت بواسطتها من حيث هي اداة التفاهم الجماعات الصغرى واعتزت وكذلك اتحدت جماعات اخرى. وتتجاذب

الشعوب ذات اللغات المتشابهة . اما الشعوب ذات اللغات المتباينة فنيها ميل الى التنافر . والصعوبة في اقرار النظام الاجتماعي بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة هي صعوبة كبيرة جداً حتى انها تُلاحَظ اليوم في المدن الاميركية الكبرى وما فيها من اهلين غير متجانسين . ومع ان اللغة في مثل هذه الاحوال تدعو الى الانقسام فهي في الاصل كانت مدعاة الى الوئام . واللغة هي وليدة السعي للافصاح عما يخالج النفس من الافكار وكل من ينقب عن منشأ المجتمع البشري يجد في فعل اللغة وفي رد فعلها سبباً من الاسباب الداعية الى حدوثه ونتيجة من النتائج المتولدة عنه »

والآن يهمنا ان نرى هل في استطاعتنا ياترى ان نستأنس بشيء من قواعد العلم الثابتة في تشييد هذا الحصن الادبي المنيع القائم على رابطة اللغة والثقافة في الاقطار العربية الراقية؟

لم أقتصر في مقالي هذا على الاقاليم الراقية الا لسبب التفاهم الحادث بينها فالوزير والنبيل والفقيه والاديب والعالم والتاجر من ابناء مصر اذا حلّ ضيفاً في سورية او في العراق مثلاً اوجد لنفسه فيها في مدة اربع وعشرين ساعة حلقة من الاهلين لا يحصر عدد افرادها تفهم منه لغته وتدرك اشارته وتقدر شكواه وتحيط بمعانيه احاطة الشقيق بالشقيق فهل يجوز ان نترك هذه القوة العظيمة تذهب عبثاً كما نترك الماء حتى الآن حرارة الشمس تضيع في الصحارى وقوة الامواج تتكسر على الشطوط !

لقد اثبت العلم ان في مقدمة الاهداف التي يسعى المجتمع للوصول اليها الحصول على القوة وعلينا الآن نخالط انفسنا بالحقائق فتنقاد الى اولئك الكتاب النظريين الذين ملأوا الدنيا صياحاً في اوائل الحرب العامة بالطعن في القوة للنيل من الالمان فمثل هذا الطعن ترويج للدعاية التي اثارتها المصلحة السياسية . قال تاتيرج « اننا حاصلون على القوة فلا حاجة بنا الى البحث عن برهان آخر » وقال الاستاذ جدنغز « ان معظم الناس يعجبون بالقوة خاصة ويقدرونها قدرها في تكوينهم المثل العليا التي ينحتونها نصب عيونهم جسدية كانت هذه القوة ام عقلية ام اخلاقية . والبطل الذي يشغفُ الرجل المتوسط هو شخص ذو قوة جسدية او حذاقة او شجاعة وهو يتلذذ بمعرفة هذا البطل وبصحبته ويرجو ان يرى نفسه شبيهاً به ويتمنى ان يكون المجتمع الذي ينتمي اليه موصوفاً بالقوة ومظهراً لها ... ذلك لان الحياة في حد ذاتها هي حركة وصراع وان اعمق الغرائز المغروسة في النفس هي غرائز الحركة والنشاط . ثم ان هنالك نضالاً كبيراً يجلبهُ السعي الجدي في الدرجات الابتدائية من النشوء العضوي والنشوء الاجتماعي . فالفرد الذي يطلب النجاح في تنازع البقاء عليه ان يكون قوياً وسريع الحركة وهذا هو حال الجماعة ايضاً . والحياة محفوفة

بانواع الخطر والصراع حال دائم . وكل ما كان مظهراً للقوة يرهف الخيلة ويأخذ بمجامع القلوب وما يتم الحصول عليه بالقوة وحدها طمع الناس فيه والقوة التي تمهد للمرء غايته هي موضع الاعجاب والاستحسان » . وقال صاحب « المجمل في علم الاجتماع » اما القول بان الرأي العام يملي قدر القوة فوق سائر الاقدار فهو قول يبدو لاول وهلة خطأ لكن نظرة واحدة في الاحكام التي يصدرها المجتمع تقنع المرء رغم انفه ان هذا هو الواقع »

فهل نحن والحالة هذه على خطإ اذا ما طلبنا لمجتمعنا قوة نعتز بها وذلك بتوحيد جهودنا لجعل لغة التفاهم فيما بيننا على مستوى واحد من الرقي الادبي والعلمي واهلاً لملاقاة المقتضيات الحاضرة ؟ واذا كان اشراك عظامنا وعضلاتنا واعصابنا في الوقت الحاضر متعذراً فلنشرك عقولنا وأرواحنا ولنوحد صفوفنا توحيداً ادبيًّا يسير بنا نحو القوة المنشودة

***

والدساتير الاجتماعية الآتية متى طبقت على اللغة وتأثير اللغة في الجماعات تطبيقاً نزيهاً دقيقاً تبر الموقف وتفتق الذهن الى الحل الواجب تحقيقهُ : —

(اولاً) دستور العطف وهو : «تزداد درجة الاشتراك في العواطف بازدياد الشبه » بين الافراد والجماعات . فالبيض في بلاد السود مثل السود في بلاد البيض يتداعون ابناء العمومة والخؤولة . ولو كانوا من بلاد على طرفي نقيض من سطح الارض . والفريون في الشرق كالشرقيين في الغرب اشدُّ التحاماً واقرب تفاهماً ولهم جمعياتهم المعينة وانديتهم الخاصة . « والمصالح العامة والمشاعر المشتركة » كما قال المجمل في علم الاجتماع « تقرب الناس بعضهم من بعض وتزيد في عطف الواحد منهم على الآخر . والشعوب التي هي على درجة واحدة من الثقافة تتولد فيها بينها مصلحة عامة فعواطف مشتركة . وروابط العطف بين الافراد المجتمعين على مستوى واحد والمشغولين باعمال واحدة هي اقوى بكثير منها بين اناس تبدو فيهم الاختلافات الواضحة في الاخلاق والثقافة والحرفة »

(ثانياً) دستور التقليد وهو : « اذا لم تقم الموانع فالتقليد ينتشر بنسبة هندسية » بمعنى على معدل اثنين فاربعة فثمانية وهلمَّ جرًّا بمضاعفة العدد اللاحق للسابق . وهذا الدستور على اعظم جانب من الخطورة في تدرج الاقوام والجماعات . وكما ان الطفل يكتسب في سنيه الاولى جميع عاداته تقريباً وجزءاً كبيراً من معرفته ايضاً بواسطة التقليد فكذلك الجماعات ولاسيما في ادوارها الاولى . واللغة واسطة من اقوى الوسائط لنقل الاوضاع والمدنيات من جماعة الى اخرى بالسرعة العجيبة . ولاشك ان الصلابة القومية او مقاومة الاندفاع في التقليد هي صفة جوهرية لحفظ المزات الخاصة في الجماعات ورمز للقوة المكنية المستترة في

التفوس ولكنها متى افرطت فصارت يوسة بحيث يقف القوم في وجه كل تغيير مستمراً باعتباره « بدعة » ولو كان ركوب السيارات بدلاً من الحمير فالجمود او الانكسار امر لامفر منهُ . وقد رأينا في هذا الشرق امماً اندفعت في تيار التقليد كما جد غيرها على جلاميد المحافظة وكلاهما لا يدلُّ على جهاز عصبي صحيح لان الحياة الاجتماعية المتدرجة لا يتحلى بها الاَّ من كانت لهُ نفسية ذات كيان متفرد من جهة وذات مرونة متكيفة من جهة اخرى

والدليل على انتشار التقليد بنسبة هندسية هو مسألة رياضية مضبوطة . فلو فرضنا ان زيداً من الناس احدث طرازاً جديداً في الطعام او في اللباس او في الرأي فقلده فيه عمرو فان زيداً وعمراً — لا زيداً وحده — يصبحان مصدرين مستقلين للتقليد فيقلد بكر زيداً ويقلد خالد عمراً وهكذا يصبح لدينا اربعة مناهل للتقليد يردها اربعة آخرون فيكون مجموع المناهل المستجدة ثمانية وهلم جرًّا طبقاً لمتوالية هندسية. وهذا الدستور يفسر السرعة العجيبة في انتشار الازياء الحديثة والافكار الحاضرة ولو لم يتغير التقليد بتغير الامم التي تمر عليها كما يتكسر النور بحسب المادة الشفافة التي يخترقها لكان التدرج في الاقوام بطيئاً لذلك رأينا الدين الواحد في بعض الاحيان مختلفاً باختلاف الاقوام التي آمنت به . والشيء السهل في هذا الدستور هو ان توحيد الثقافة في اقطارنا العربية ليس من الصعوبة بالمكان الذي يتراءى فيه بل كلما اكثرنا مناهل التقليد قرَّبنا اليوم الذي تتشابه فيه المشاعر والافكار وتتحد المثل العليا

(ثالثاً) دستور العمل الاجتماعي الاندفاعي : يشبه هذا الدستور دستور التقليد من حيث انه ينتشر ويشتد على نسبة هندسية والمثال البارز عليه هو الفزع الاكبر الذي يستولي على الجماعات في الحروب والمجتمعات والطرقات فيختلط فيها الحابل بالنابل ويدوس القوي من زل قدماه من كثرة الرعب او من شدة الازدحام . وغني عن البيان ان للتقليد شأناً كبيراً في مثل هذه الاندفاعات وللقدح المعلى في صوغ الجمل التي تلعب بالعقول وتنظم الافكار التي تحرك الجامد . ولا يدري احد بالضبط قيمة الدور الذي مثلته الجمل الآتية في الانقلابات : « لاضرائب من غير تمثيل » « الحقوق الطبيعية » « اعلاء كلمة الله » « فتحي فرنسا » « المانيا فوق الكل » وربما كان لكلمة الرئيس ولسن « تقرير المصير » مثل هذا الاثر الخطير

(رابعاً) دستور الشعور بالنوع : — وخلاصته ان الافراد او الجماعات متى اضافوا الى وجود الشبه القائم بينهم الشعور بهذا الشبه والاحاطة به والعطف المتولد منه ازدادوا تقارباً وتلاحماً . ويدلُّ هذا الدستور على خطورة المساعي التي تولدت من بث الدعايات بواسطة الصحف والمنابر والجمعيات لاظهار الشبه النوعي في الاقوام المنتشرة والعطف المتبادل بينها كما نعت « الجامعة الاسلامية » في بلاد العرب مثلاً . وكلكم تذكرون

الحرب أوزارها الى استعمال علمهم في المشروعات التجارية والصناعية المفيدة. فهل الذنب ذنب العلم ان المال اللازم لترقية الطيران لم يبذل عن سعة الا في الحرب ؟ ألم يسفر البحث في الراديو وأشعة اكس في اثناء الحرب عما يتمتع بها الالوف الآن من وسائل الصحة والطرب

لقد تحامل بعض الكتاب على العلماء لان تكتشفاتهم تزيد وسائل الحرب فتكاً وهولاً. وقال آخرون ان استنباط الادوات الفتاكة يقضي على الحرب لانها تزيد اهوالها . اننا نعلم الآن ان هذه الاقوال ليست سوى آمال صبيانية في طبيعة قوامها الحرب والنزاع من الاشجار الى الكلاب الى القردة الى الانسان . ولكن ازاء كل عالم يستنبط مادة مفرقعة جديدة او غازاً خانقاً نرى آخر يصنع صلباً اقوى لا تعمل فيه هذه المادة المفرقعة او غماء الوجه يمنع الغاز . فغاز الخردل الذي كان فعالاً في الايام الاخيرة من الحرب العالمية كان اقل فتكاً بالجنود من المفرقعات القوية. نعم ان العلم يجعل الحرب جهنماً ولكن تصور حرباً بلا علم قد تكون مقذوفة المدفع الذي من سنان رمح جندي . لا ادري. ولكنني ادري ان حالة الجندي المطعون بسنان في صدره اذ يخرجهُ منهُ طبيب لا يعلم شيئاً عن الجراحة والمطهرات اشدُّ خطراً من حالة جندي عصري اصابتهُ قنبلة فنقل الى المستشفى ليعالج فيه علاجاً علمياً وافياً

حتى اذا كانت تبعة الحرب تقع على العلم — وهذا مالا اسلم به — لقلت ان نتائج هذه التضحية تسوّغها . ان سلاحاً يستنبطهُ عالم ما قد يكون وسيلة لقتل الالوف ولكن ابحاث العلماء في ناحية اخرى تخلص اضعاف ذلك من الموت . ان عدد الذين خلصوا من انياب الموت والشفاء بوسائل الجراحة الحديثة يربي على كل الذين قتلوا في ميادين الحرب في القرن الاخير. واما النعم الاخيرة التي حبانا بها العلم فاعظم من ان تثمّن . بل أذهبُ الى ابعد من ذلك واقول ان العلم ، عامل فعّال في منع الحرب بدلاً من إثارتها وتنشيطها. فالنزاعات الدينية المبنية على الجنس والتعصب قد زالت في الاوساط المثقفة تنفيذاً علمياً. واتساع نطاق التجارة مهّد السبيل لترقية وسائل المخاطبات والمواصلات فصارت المجاعات الكبيرة من ذكريات التاريخ . ان القطار والطيارة يشجعان الناس على الارتحال . والارتحال يوسع افق النظر والادراك ويقوي شعور العطف وهذا من افعل الوسائل في منع الحرب

واني اعتقد ان الذين يتحاملون على العلم هذا التحامل ، يجب ان يبحثوا عن الخشب في عيونهم قبل البحث عن القذى في عيون غيرهم . فهم لا يجنون خيراً ما من كم العالم وقد يخسرون كثيراً. انني من الذين يؤمنون على القول بان الحرب رجسة من عمل الشيطان ويجب اجتنابها. ولكنني اقول : لا تأخذوا السكين من يد الطفل بل علموهُ كيف يستعملهُ ليري به قلماً ، علموه بالطرق العلمية قدس الحياة. اما اعداء العلم فيقولون « خذوا السكين وابعدوهُ عن الطفل كلا يطعن به احداً ». هذه وجهة نظر اخرى ! فأيهما تؤثر ؟